داخلها ما يشبه الناس الصغار الحجم . انهم ليسوا اطفالا في مثل سني — كان يفكر ، وعندما سأل والده مرة عن سر كون هذه السيارات صغيرة الى هذا الحد ، اجابه والده بلهجة العارف بالاسرار ، ان السبب يعود الى كون الاشرفية جبلا ، كان البيروتيون يقصدونه للاصطياف . وهي جبل عال بالقياس الى بيروت . فالمسافة التي تفصلنا عن طريق نهر بيروت هي مسافة عالية ، كذلك تلك التي تفصلنا عن طريق كرم الزيتون . وكلما بعدت المسافة تصغر الاشياء . وغدا عندما تكبر سوف ترى السيارات صغيرة جدا . لأن الرؤية ترتبط كذلك بحجم الذي يرى . كنت اهز راسي دليل الفهم دون ان افهم شيئا . وغالبا ما كنت اترك والدي يتكلم حكايته التي يكررها دائما عن المسافات والسيارات ، والتهي بملاحقة احد الزيزان المذهبة وهو يطير بين الحشائش الخضراء او يقف بين اغصان شجر الزيتون .

صف طويل من السيارات الصغيرة التي لا تصدر اصواتا . نجلس على حافة التلة نتأملها ، وننتظر اليوم الذي سنكبر فيه فنراها صغيرة جدا ، او ننزل الى الطريق فنراها كبيرة . تسير امامنا وكأنها قطرات ماء ملونة ، لها احجام مختلفة . شاحنات ، ناقلات نفط ، سيارات صغيرة من مختلف الانواع . نميزها دون ان نعرف الاسماء او الوظائف . كانت بعيدة وصغيرة ، ونحن نمسك بأيدي بعضنا وننتظر ان نكبر ، فتصغر اكثر ، نمسك بأيدي بعضنا وننتظر ان نفهم السر . ودائما كنت اتعجب كيف تكون السيارة صغيرة لانها بعيدة . واحلم بقصص الاقزام التي اخبرونا اياها في المدرسة ، او بقصص الرجل الذي مسخه الشيطان الى قزم كما تخبرني جدتي .

الجبل الصغير في مكانه ، الحشائش التي تغطي جسده الجميل ، بدات تخلي مكانها للطرقات ، فرحنا بافتتاح اول سينما في السيوفي . لكن المفاجآت كانت تنتظرني. كنا نكبر دون ان يحصل ما انتظرناه طويلا . نكبر ونذهب الى السيوفي لنتفرج على السيارات فنراها تكبر . نحن نكبر والسيارات تكبر . الحركة تحيط بنا والاصوات ترتفع . نحن نكبر والخطوط التي كانت مستقيمة تتعرج الى ما لا نهاية ، والاصوات تصبح اكثر اقترابا ، والمساحات اكثر ضيقا . امشي وحيدا ، والجبل الصغير يتقوس ويتعرج . ابحث عن ذكرياتي حين كان احد الشعانين عيدا نخرج به من الكنيسة بنبرة شرقية ، فلا اجد من الذكريات الا صورة صغيرة مهملة في جيبي .

السيارات تكبر ، تحيط بي . الاشجار تصغر او تختفي . انا اكبر والسيارات تكبر ، وحول رقبتي اصواتها ، الوانها ، احجامها . الآن نميزها لكننا لا نفهم . التوقعات القديمة أو الذكريات القديمة مجرد توقعات او ذكريات .

في الليل ، تصعد السيارات من الطرق الثلاثة الى التلة المرتفعة ، او تأتي اليها تحيط بي الاضواء التي تسحق العينين . يحاصرني صوت محركاتها وهي تتقدم الى وجهي . السيارات كبيرة ، لها عيون واسعة تمد خيوطا من اللهب الذي لا يحرق . تضع على وجهي علامات الرهبة والاسئلة والاجوبة .

السيارات تكبر ونحن نكبر . والطرق الواسعة تكبر . والاشجار تنحني على الجبل الصغير . اين اصبحت معادلات والدي وهو يروي لي حكايات المسافة والعلو والكبر ؟.

تقف وحدك ، وسط نهر من الاضواء التي تمنعك من الرؤيا وتسرق ذاكرتك . وتذهب للبحث عن بيتك وحيدا وبلا ذكريات .

★ ★ ★